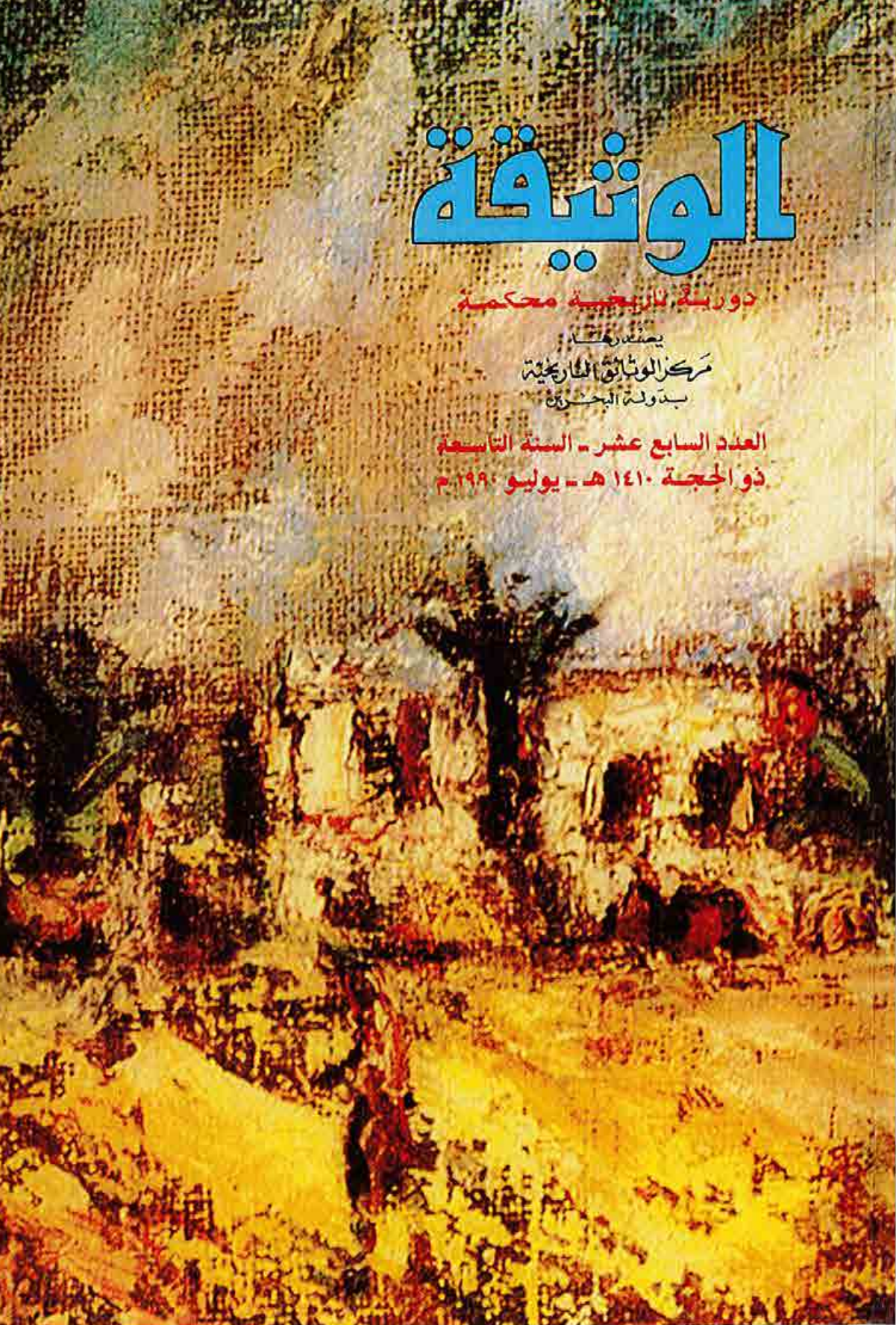
الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد السابع عشر - السنة التاسعة
ذو الحجة ١٤١٠ هـ - يوليو ١٩٩٠ م

معارك البحريّة العُثمانيّة ضد البحريّة البرتغاليّة في الخليج العربي

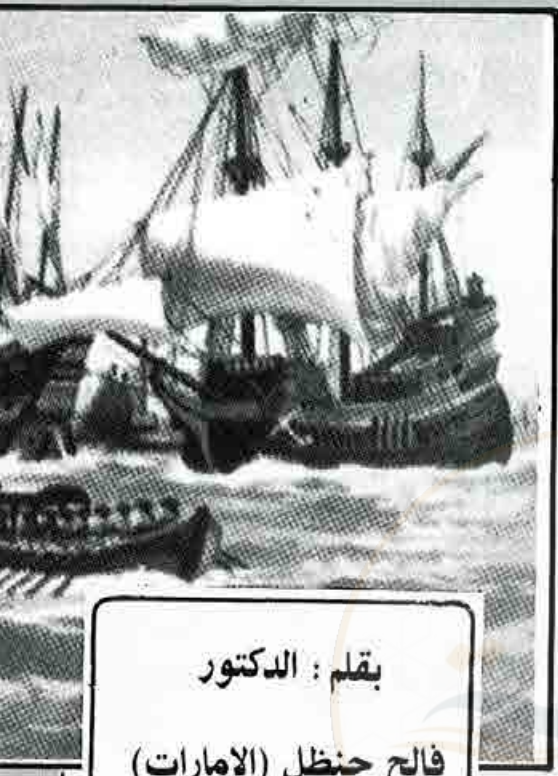

بقلم : الدكتور

فالح حنظل (الامارات)

لا تقتصر أهمية الخليج العربي على يومنا هذا ، أي عصر البترول المستخرج من مياهه وأراضيه ، ولكن أهميته ترجع الى قرون قديمة ، وهي بالدرجة الأولى أهميته التجارية والاقتصادية .

فالخليج العربي وسيلة من وسائل الاتصال الرئيسية بين الشرق والغرب ، وفيه امتزجت الحضارات وتبودلت التجارات فهو الذراع

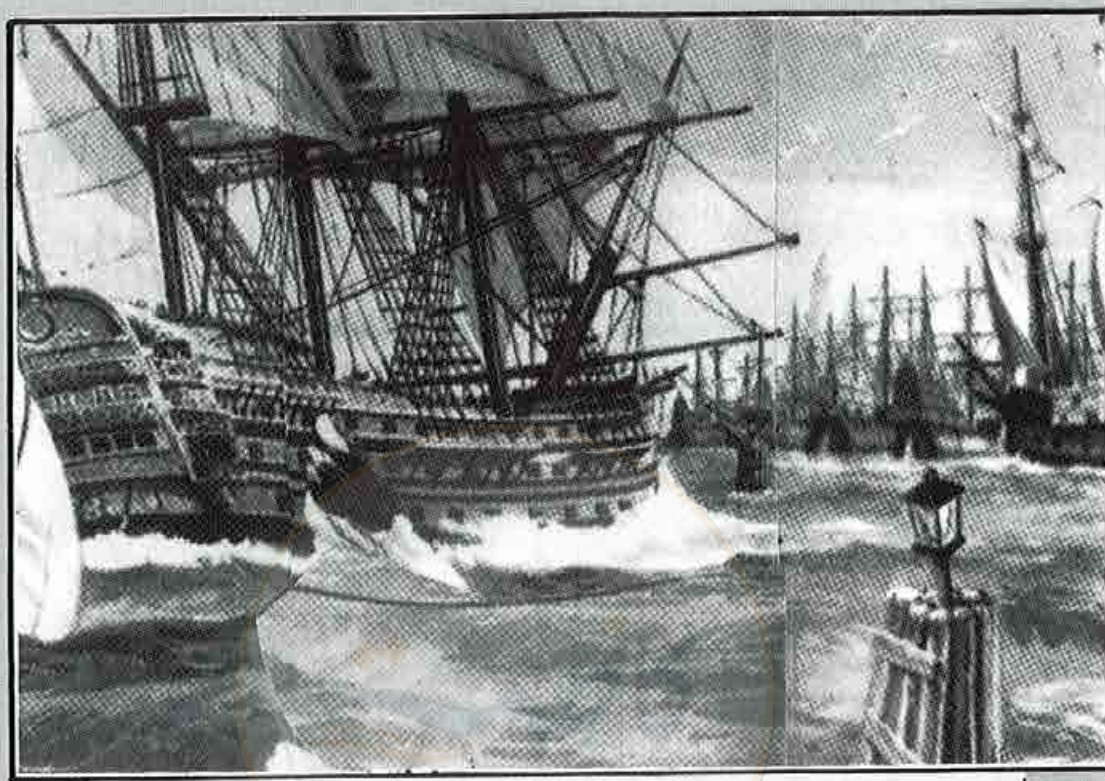

البحرية للمحيط الهندي الذي تنقل تجارة الشرق إلى الغرب ، وتشاركه الذراع البحرية الأخرى وهي البحر الاحمر الذي يتساوى معه في الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية ، فهما وسيلتا الاتصال بين أوروبا والشرق .

لقد كانت طرق التجارة البحرية العالمية التي تنقل تجارة الشرق الى الغرب تمر من الممرين المائيين العربيين الكبيرين وهما طريق الخليج العربي ، فنهر الفرات ثم إلى سواحل البحر المتوسط أو طريق البحر الأحمر ثم خليج السويس ومنه إلى سواحل البحر المتوسط ، وقد تمثلت تجارة العالم القديم الرئيسية مع الشرق بالبضائع الهندية وخاصة التوابل التي كان الأوروبيون يستعملونها لتطييب الطعام وحفظه من التلف أيضا .

وإلى أوائل القرن السادس عشر للميلاد كانت الفعاليات التجارية وعمليات نقل البضائع الهندية من موانئها في سواحل الهند الغربية المواجهة للبلاد العربية ، وكذلك

العمليات التجارية كالبيع والشراء والمقايضة ومعاملات التسويق وغيرها من الشئون التجارية تقوم بها الدول العربية والاسلامية التي تطل سواحلها على الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر .

فبالنسبة لطريق الخليج العربي كانت حكومة جزيرة هرمز التي تقع في مدخل الخليج تحتل بعض الاجزاء الساحلية من عمان والبحرين وسواحل القطيف والأحساء ، وهي بذلك كانت تسيطر ايضا على خطوط الملاحة التجارية وحركة السفن وشئون الجمارك وغيرها من الامور التجارية للسفن التي تأتي بالبضائع الهندية من موانئها فتمر من مدخل الخليج العربي حيث تقع هرمز ، وتتوقف في (جلفار) رأس الخيمة والبحرين والأحساء ثم إلى البصرة التي كانت تشكل مركز تجارة الهند في شمال الخليج ، وكانت ايضا مركز تجمع للسفن لتدخل بعدها إلى نهر الفرات في الأراضي العراقية ثم نهر الفرات في الأراضي السورية ، حيث تُنزل الأحمال هناك ، ويعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى الموانىء العربية في ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليعاد بيعها هناك إلى السفن الأوروبية التي تنقلها إلى أوربا لتباع هناك .

أما الطريق البحري الأكثر أهمية من طريق الخليج العربي ، فهو الطريق الذي يمر بالقرب من سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية أي موانىء عمان واليمن الجنوبية ، ثم يدخل مضيق باب المندب حيث سواحل اليمن الشمالية ، ثم موانىء السودان والحجاز الى أن يصل الى خليج السويس حيث ترسو السفن هناك لتفرغ حمولتها وتنقلها على ظهور الركائب الى ميناء الاسكندرية لتقوم حكومة مصر ببيعها إلى تجار حكومة البندقية الأوربية .

أما الوضعية السياسية التي كانت عليها دول المنطقة قبل أن تتفتح أعين الدول الاوربية على انتزاع تلك التجارة من يد العرب والمسلمين ، أي قبل وصول البرتغاليين إلى الهند عام ١٥٠٢ م فقد كانت كما يلي :

كانت في هرمز حكومة محلية تخضع سياسيا إلى دولة فارس ، وكانت تسيطر على مدخل الخليج العربي وبعض سواحل عمان وبعض أجزاء الساحل العربي أيضا .

أما عمان ، فقد كانت الصورة السياسية لتلك الدولة غير واضحة ، إذ أن دخول البرتغاليين إلى مدن خورفكان ومطرح ومسقط وغيرها من مدن عمان وسقوطها بيد (أفونسو البوكيرك) القائد البرتغالي عام ١٥٠٣ ، هذا الحدث الكبير لم نجد له تاريخا في مصادر التاريخ العماني ،

إذ كل ما ذكره العمانيون ، هو أن عمان كان يحكمها الإمام محمد بن اسماعيل الاسماعيلي الذي تولى الإمامة من عام ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م إلى عام ٩٢٤ هـ - ١٥٣٥ م .[١]

أما البحرين فقد كانت زعامتها بيد أمير عربي هو الامير مقرن بن أجود بن زامل الجبري، زعيم قبائل الجبور أو (بني جبر) وهي التي كانت تسود وتحكم في البحرين وساحل القطيف ويمتد نفوذها الى مسقط وخورفكان ، حيث يفهم من مذكرات القائد البرتغالي (أفونسو البوكيرك) أن الحكام العرب الذين تصدوا له وقاتلوه هناك كانوا من بني جبر .[٢]

أما العراق فقد كانت تحت سلطة (آق قوينلو) إلا أن البصرة كانت تحت حكم حكومات عشائرية محلية لآل المشعشع وآل عليان الى أن آل أمرها إلى الأمير راشد بن مغامس فيما بعد والذي امتد نفوذه إلى ساحل الأحساء أيضا .

أما الدول العربية التي كانت تسيطر على طريق البحر الأحمر ، فان اليمن بشطريه الشمالي والجنوبي كان تحت ظل الدولة الطاهرية التي كان آخر ملوكها السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري والذي كان ينازعه على العرش والسلطة الامام شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي .[٣]

وكان ميناء عدن يشكل مركزا مهما تتوقف فيه السفن العربية وخاصة المصرية التي تنقل تجارة الهند إلى اوروبا .

أما الحجاز فقد شكل ميناء جدة مركزا تجاريا أيضا ، وكانت الحكومة القائمة هناك برئاسة الشريف بركات بن محمد أمير مكة الذي كان خاضعا لحكومة مصر المملوكية .

أما مصر ، وهي الدولة الاولى المستفيدة من تجارة الهند ، فقد كانت تحت حكم دولة المماليك البحرية وكان الحاكم آنذاك هو السلطان قانصوه الغوري ، الذي كان يمتد نفوذ دولته إلى الشام والحجاز وكانت مصر قد دخلت في اتفاقيات تجارية مع دولة البندقية لتصريف البضائع الهندية في أوربا وخاصة تجارة التوابل الثمينة ، كما كانت مصر قد تعاقدت أيضا مع أمراء ساحل الكجرات الهندي الشمالي وساحل المالبار الهندي الجنوبي ، وكلهم مسلمون ، على احتكار القسم الأكبر من تلك التجارة . إلا أن تمكن البرتغاليين من الوصول الى الهند ، فتح شهيتهم وحرك مطامعهم إلى غايتين :

الاولى اقتصادية بحتة ، الا وهي السيطرة على مصادر ثروة العالم آنذاك وهي تجارة توابل الهند ، مما أدى الى أن تعمل على السيطرة على الممرين العربيين العظيمين : الخليج ،

والبحر الأحمر ، أما الغاية الثانية فقد كانت تبشيرية محضة ، ووسيلتها الاتصال بمملكة القديس يوحنا أي الحبشة والتنسيق معها لضرب القوى الاسلامية في المنطقة ، ويكاد المرء يعجز عن وصف مظاهر الحقد الهائل الذي حمله البرتغاليون في قلوبهم لكل ما هو عربي ومسلم وهو يفتحون ممالك العرب والمسلمين ابتداء من المغرب العربي وانتهاء بحكومات الأمراء الهنود : لذلك ما إن حل عام ١٥٠٥ م حتى صارت البرتغال تجني الحاصل الطيب من وصولها إلى الهند ، فقد تمكنت من احتكار أغلب تجارة الهند بعد أن أخضعت حكامها بالقوة مما دفع بالملك البرتغالي (عمانويل الثاني) الى أن يقرر احتلال الساحل الغربي للهند ، فكانت الحملة العسكرية التي وصلت إلى الهند يوم ١٥٠٥/٩/١٣ م بقيادة (دوم فرانسيس دي الميدا) الذي أعلن نفسه نائبا لملك البرتغال هناك .(٤)

لذلك فقد انهالت رسائل ملوك الهند والعرب على سلطان مصر قانصوه الغوري لانقاذهم من هذا الخطر ، وانقاذ مصر أيضا التي تهددت في صميم اقتصادها واحتمال انهيار تجارتها وفقدان سمعتها التجارية والدولية ، لذلك فقد خرجت الحملة المصرية الأولى لقتال البرتغاليين في الهند بقيادة الأمير حسين الكردي ، الذي تمكن من إنزال هزيمة بالقوات البرتغالية في معركة (شول) عام ١٥٠٧ م .(٥)

وعلى إثر تلك الهزيمة ، قرر الملك البرتغالي إرسال حملة عسكرية كبرى إلى البلاد العربية لاخضاعها ، فكانت حملة (أفونسودي البوكيرك) التي تمكنت من احتلال هرمز ومدن الساحل العماني ، وقد أدى هذا الاحتلال إلى أن يقع الخليج العربي في قبضة البرتغاليين ، ولكي يتم (البوكيرك) أحكام الحصار والطوق العسكري على مصر التي كانت تتهيأ لحملة عسكرية ثانية ، فإنه قرر القيام بمغامرة عسكرية وهي احتلال عدن ، ثم التقدم بسفنه نحو باب المندب واحتلال جدة وبعد ذلك يقوم بشن هجوم على المدينة المنورة ويقوم بنبش الرفاة الطاهر للرسول الأعظم ﷺ ويأخذ التراب الشريف ، فاذا تم له هذا قايض به كنيسة القيامة في القدس وطلب مليون متطوع أوربي ليأتوا الى منابع النيل ويحولوا مجراه بحيث يصب في البحر الأحمر وبذلك تموت مصر .

لذلك فقد غادر (البوكيرك) الهند يوم ١٥١٣/٢/٢٨ م بحملة عسكرية كبرى لتنفيذ غرضه المجرم هذا ، الا أنه مني بهزيمة عسكرية كبرى أمام أسوار عدن أنزلها به حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري ، وعندما توجه

الى الحجاز لتنفيذ غرضه الخبيث الثاني ، أنزلت به السماء هزيمة أكبر إذ حطمت الرياح سفنه على صخور جزيرة كمران بالقرب من سواحل اليمن الشمالي كما ظهر له لهب في السماء أرعب جنوده وأجبره على الانسحاب .[٦]

لذلك فقد قررت القياة العسكرية البرتغالية أن تتخذ استراتيجية عسكرية جديدة في المنطقة وذلك بأن تقوم باحكام قبضتها على هرمز ومناطق الخليج العربية الأخرى ، وأن تراقب وتهاجم السفن المصرية واليمانية من قواعد بحرية تقيمها في جزيرة سقطرة وموانىء الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي ، وقد نجحت تلك الخطة إلى حد كبير في التأثير في الأوضاع الاقتصادية في كل من اليمن ومصر بحيث لم يبق مجال امام سلطان مصر قانصوه الغوري الا أن يأمر بتشكيل حملة عسكرية ثانية بقيادة الأمير حسين الكردي لقتال البرتغاليين وقد خرجت الحملة المصرية الثانية من القاهرة يوم ١٥١٥/٨/٢٠ م .[٧]

إلا أن أمورا جساما وقعت في العالم الاسلامي آنذاك بحيث غيرت الخارطة السياسية فيه وخلطت الأوراق وقلبت المقاييس ، وذلك أن قوتين اسلاميتين كانتا قد ظهرتا على مسرح الأحداث في تلك الحقبة من التاريخ ، وهي قيام الدولة الصفوية في ايران عام ١٥٠٢ م بقيادة مؤسسها الشاه عباس الصفوي ، وامتداد تلك الدولة إلى العراق ، أما القوة الثانية فقد تمثلت في اعتلاء السلطان سليم بن السلطان بايزيد العثماني والمعروف باسم (ياووز سلطان) أي السلطان المهول ، للعرش العثماني عام ١٥١١ م .

وبدلا من أن تتوحد القوتان مع القوة الاسلامية الثالثة وهي قوة مصر المملوكية ، لمحاربة البرتغاليين الذين راحوا يعيثون فسادا في المياه الاقليمية العربية ويقاتلون السفن العربية والاسلامية ويحتلون السواحل العربية والاسلامية ، فإن حروبا نشبت بين تلك الممالك الاسلامية ، إذ أنزل السلطان سليم العثماني هزيمة بالشاه اسماعيل الصفوي في معركة (جالديران) عام ١٥١٤ م ودخل عاصمته (تبريز) . وفي عام ١٥١٦ م أوقع هزيمة مماثلة بسلطان مصر قانصوه الغوري في معركة (مرج دابق) ودخل عاصمته القاهرة وقضى على دولة المماليك البحرية وأعلن قيام الدولة العثمانية في مصر .[٨]

فماذا كانت النتائج السياسية لتلك الحروب والخلافات الاسلامية..؟

كانت نتيجتها أن الشاه اسماعيل الصفوي الذي كان يتقرب من

البرتغاليين سابقا لمساعدته في الوقوف ضد العثمانيين ، عقد معاهدة صلح وتعاون معهم ، مما أعطاهم حقا ثابتا في أن تكون هرمز قاعدة عسكرية وتجارية صرفة لهم ، بحيث قام البرتغاليون فيما بعد بمساعدة ملك هرمز ضد ثورة البحرين التي قام بها الأمير مقرن بن أجود ومصرعه على يد القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا) عام ١٥٢١ م ، كما قاموا بإخضاع عرب عمان عندما ثارت مدن مسقط وقريات وصحار ضد التسلط الهرمزي - البرتغالي .

أما في مصر فقد أثر سقوطها بيد العثمانيين ، في الحملة المصرية الثانية التي كانت متوقفة آنذاك في عدن لتأخذ طريقها إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك ، إذ ما أن وصل خبر مقتل السلطان قانصوه الغوري وسقوط القاهرة بيد العثمانيين حتى غادر الامير حسين الكردي القائد العام للحملة المصرية الموجودة في اليمن مقره وقفل عائدا إلى القاهرة ، الا أنه أغتيل في الحجاز ، وكان مصير القوة المصرية أن انقسمت إلى قسمين ، قسم بقي يؤيد النظام المملوكي السابق ، وقسم أعلن الولاء والبيعة للنظام العثماني الجديد ، ثم لم يلبث أن تفاقم الأمر أكثر عندما انقسمت كتائب الحملة إلى قسمين آخرين واحد يؤيد سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري ، وآخر يؤيد الامام الزيدي المنشق في اليمن الشمالي ، ثم آل الأمر في نهايته إلى أن انقلبت قوات تلك الحملة الى عصابات تعيث في اليمن فسادا فقتلت ملكها السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري ، وقسمت اليمن الى قسمين : شمالي يتمذهب بالمذهب الزيدي ، وجنوبي يتمذهب بالمذهب الشافعي . وإزاء تلك المصائب لم يكن أمام الأمير عامر بن داود الطاهري وهو ابن أخ السلطان القتيل الا أن يعقد صلحا مع البرتغاليين .[٩]

وأمام فساد تلك الأوضاع في اليمن وانتشار الفوضى فيها وتفاقم الخطر البرتغالي في جنوب شبه الجزيرة العربية والتحالف الصفوي البرتغالي في الخليج ، علاوة على قيام شيخ البصرة راشد بن مغامس بالخضوع للبرتغاليين هناك ، فما كان من السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان منشغلا بقتال الدول الأوربية في أوربا ومقاتلة الاسبان في الجزائر ، ودعم الحركات الوطنية المغربية ، الا أن ينظر في امر البرتغاليين بجدية أكثر فقرر أن يقوم والي مصر سليمان باشا الخادم باحتلال عدن واعلان حكم السلطنة العثمانية في اليمن ، ثم الخروج إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك .

فقام سليمان باشا الخادم بتنفيذ

أوامر الباب العالي واحتل عدن عام ١٥٣٨ وقطع رأس أميرها عامر بن داود الطاهري بحجة تعاونه مع البرتغاليين ، وأعلن أن اليمن بشماله وجنوبه خاضع للسلطان سليمان القانوني ، ثم ذهب إلى الهند وقاتل البرتغاليين هناك ولكن بدون أن يحرز عليهم نصرا حاسما وعاد الى القاهرة عام ١٥٤٠ م ، وبعدها اكتفت الحكومة العثمانية بأمور الدفاع عن اليمن والبحر الأحمر ضد احتمالات التدخل البرتغالي هناك .

أما بالنسبة للنشاطات العثمانية في العراق والخليج العربي فان بغداد كانت قد سقطت بيد العثمانيين قبل عشرة أعوام تقريبا ، إلا أن انشغال العثمانيين بساحات القتال في أوروبا وشمالي افريقيا جعلتهم غير مكترثين بولايات العراق النائية ومنها ولاية البصرة ، هذه الولاية التي كما أشرنا سابقا كانت بزعامة حكومة محلية يرأسها راشد بن مغامس الذي أعلن الولاء للبرتغاليين ثم لم يلبث أن أعلن ولاءه إلى الحكومة العثمانية ، إلا أن العثمانيين ورغم أهمية البصرة بالنسبة لأعدائهم الفرس الصفويين والبرتغاليين ، لم يضعوا في أول الامر الثقل الواجب وضعه في البصرة بل اكتفوا بالاعتراف بسلطة راشد بن مغامس هناك بشرط أن يقوم بسك النقود التركية ، وان يخطب بالجوامع للسلطان العثماني . لذلك فان شيوخ القبائل المتنفذة في منطقة البصرة استخفوا بحكومة السلطان العثماني في بغداد وعمدوا إلى قطع العلاقة بها واتباع وسائلهم القبلية في معالجة أمورهم ، لذلك فقد أصبحت البصرة مركزا للشيوخ العصاة وقطاع الطرق .

فلما بلغت الدولة العثمانية الأنباء المقلقة عن اضطراب الأمن في البصرة قرر أياس باشا والي بغداد أن يجهز حملة لتعيد هيبة الحكومة . فخرجت الحملة عام ١٥٤٦ م وأخضعت القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة . وفي عام ١٥٤٩ حاول الشيخ علي آل عليان شيخ مشايخ منطقة الجزائر أن يقوم بثورة لكن والي بغداد (تمرد على باشا) أرسل جيشا انكشاريا بقيادة (محمد باشا البلطجي) وتمكن من القضاء عليه .(١٠)

إلا أن المصادر العربية والعثمانية والبرتغالية لم تزودنا بتفاصيل دقيقة وجيدة عما حصل بعد ذلك من احداث ، إذ يبدو أن القوات العثمانية اندفعت من البصرة جنوبا واحتلت أيالات واسعة على ساحل الأحساء ووصلت الى قطر ، بحيث كونت ثماني أيالات أو سناجق .(١١)

إلا أن أحد حكام البصرة من الذين تضرروا من دخول الحملة التركية إلى المدينة ، ولعله علي آل عليان أو راشد بن مغامس كان يكاتب البرتغاليين

عارضا عليهم مساعدته في انتزاع البصرة من العثمانيين وموافقته على بناء قاعدة بحرية برتغالية هناك ، واضعا مقاتليه في خدمتهم .[١٢]

كان حاكم الهند البرتغالي هو (دوم أفونسودي نورونها) قد استلم رسالة شيخ البصرة الذي يطلب مساعدته ، كما وصلته رسالة مماثلة من الأمير علي بن حسين الطوالقي وهو أحد أمراء اليمن الذى تمكن من الدخول إلى عدن وطرد الحامية التركية الموجودة هناك منها ، يطلب مساعدته لتثبيت ملكه هناك كما تواترت الأنباء أن الأتراك يحشدون حشدا عظيما لمقاتلة البرتغاليين في الخليج والبحر العربي لذلك فقد قرر (نورونها) أن يجهز حملتين عسكريتين : واحدة تذهب الى اليمن والثانية إلى الخليج وكانت حملة اليمن بقيادة (لويس فاغوريا) الذي التقى بسفن عربية تعود الى أهالي منطقة ظفار في عمان اشتبكت معه وقاتلته وأوقعت هزيمة بسفنه فهرب من المعركة الى الحبشة .

أما حملة الخليج العربي فقد كانت بقيادة ابن أخيه (دوم انطونيو دي نورونها) ويبلغ تعددا سفنها تسع عشرة سفينة ، على ظهرها ألف ومئتا جندي برتغالي ، وعندما وصلت السفن إلى هرمز قام الحاكم الهرمزي بتزويدها بثلاثة آلاف مقاتل هرمزي .

كانت حامية القطيف التركية مكونة من (٤٠٠) رجل فقط ، وقد قاتلوا بشجاعة وأهلكوا أربعين برتغاليا ، إلا أن الحصن العثماني استسلم في اليوم الثاني وتم دكه وتهديمه ، وتقول المصادر التركية إنه استسلم بعد ثمانية أيام . ثم أصدر (نورونها) أوامره إلى سفنه بالتوجه نحو البصرة ، وهناك وجد أن (باشا البصرة) لم يكن قد أجرى استعدادات لقتاله بل طلب عدم القتال والانسحاب من البصرة . أما ماذا دار بين القائدين من حديث وما هو سبب انسحاب نورونها..؟

فتقول المصادر البرتغالية : إن باشا البصرة الماكر خدع نورونها بأن أبلغه بأنه موجود في البصرة لغرض الاتفاق مع الشيخ المخلوع على صيغة تفاهم وتعاون وأنه لا يرغب بمقاتلته بل إعادته الى سلطته ... ولهذا عاد (نورونها) إلى هرمز .

أما المصادر التركية فتقول : إن (بيلربي البصرة) قد طبق خطة ذكية لتفادي هذا الهجوم بحيث جعل القائد البرتغالي يعتقد بأن الأتراك والعرب قد شكلوا حلفا ضد البرتغاليين الأمر الذي جعل (نورونها) يقرر الانسحاب الي هرمز .[١٣]

وبعد تلك الاحداث فإن كلتا قيادتي القوات البرتغالية والعثمانية راحت تعمل لترسيخ أقدامها أكثر في الخليج العربي فقد قامت السلطات

البرتغالية في هرمز بتقوية دفاعات مدينة مسقط وجلفار وغيرهما ، أما رد الفعل العثماني على هذه الحملة البرتغالية فقد تمثل في أن الباب العالي اصدر أوامره الى (قيودان مصر) أي قائد القوات البحرية التركية العاملة هناك ، وهو القائد المحنك (بيري بك) ويعرف ايضا باسم (بيري بك ريس) بالتوجه نحو الخليج العربي ومقاتلة البرتغاليين . وفي أوائل عام ١٥٥٢ م أقلع (بيري بك ريس) ومعه خمس وعشرون سفينة مدمرة كبيرة وأربع سفن اسبانية من نوع الغالون ، وسفينة نقل جنود ضخمة ، أما عدد افراد القوة المقاتلة فقد كان ألفا وستمائة مقاتل ، وفي ٦/تشرين نوفمبر الثاني/١٥٥٢ علم (بيلربي البصرة قباد باشا) أن (بيري بك ريس) سيقوم باحتلال هرمز ، ثم البحرين بشكل يؤمن حماية البصرة . ولما وصلت أنباء حركة أسطول بيري بك إلى مسامع (دوم الفارو دي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز ، قرر أن يتصدى له في عرض البحر ، أي قبل وصوله إلى مسقط أو هرمز فأوعز الى القائد (سايمو دي كوستا) أن يخرج بأسطوله للتفتيش عن الاسطول التركي وصد تقدمه . ولما التقى الاسطولان تمكن بيري بك من تحطيم الاسطول البرتغالي وإغراقه ، فأصبح الطريق مفتوحا أمامه إلى مسقط .

وقفت سفن الاسطول العثماني أمام قلاع مسقط القوية وفتحت نيرانها الشديدة لمدة ثمانية عشر يوما إلى أن استسلم قائد القلعة الكابتن (جواو دي لزبو) فأخذه بيري بك ومعه ستون أسيرا برتغاليا ، ثم ترك مسقط بدون أن يترك فيها حامية تركية ، أو يستثمر الفوز بتسليم حصونها إلى أمراء عمان العرب ، بل اكتفى بأخذ مدافع المدينة ثم توجه نحو هرمز لمقاتلة البرتغاليين هناك .

كان القائد البرتغالي في هرمز (دوم الفارو دي نورونها) ومعه حامية برتغالية يبلغ تعدادها تسعمائة جندي ، وعندما وصل (بيري بك) إلى الجزيرة فانه أمر جنوده بالنزول بعيدا عن القاعدة البرتغالية ، ثم أمر بانزال بطاريات مدافعه من السفن ، وبعد أن أحكم الحصار على القاعدة البرتغالية باشر باطلاق نيران مدافعه واستمر الحصار لمدة شهر ، الا أن المدافعين صمدوا في القلعة لذلك فقد قرر (بيري بك) فك الحصار والانسحاب الى (جزيرة القسم) حيث راح يتصل من هناك بتجار هرمز ليجمع منهم النقود والأتاوات ، ثم أبحر الى البصرة .

وعندما كانت تلك الأحداث دائرة فإن حاكم الهند (دوم أفونسو دي نورونها) قرر الاسراع لنجدة حامية هرمز ، وعندما وصل إلى مدينة (ديو) الهندية في شهر سبتمبر من عام

١٥٥١ م وصلته معلومات تفيد أن بيري بك قد فك الحصار عن هرمز وأنه ارتحل إلى البصرة فقرر عدم الذهاب بنفسه ، فأوكل المهمة إلى (أنطونيو دي نورونها) الذي أسرع إلى هرمز باثنتي عشرة سفينة ضخمة وثمان وعشرين مدمرة خفيفة .

وفي البصرة التقى (بيري بك) بالوالي التركي (قباد باشا) فوقع خلاف بين الرجلين بسبب ما اشيع عن استيلاء (بيري بك) على أموال تجار هرمز ومقايضة الأسرى البرتغاليين بمبالغ كبيرة من المال ، لذلك فقد ترك(بيري بك) البصرة عائدا بثلاث سفن إلى السويس ، وهناك وجد ثلة من الجند في انتظاره ، وتم اعتقاله ووجهت اليه تهمة التلاعب بأموال الدولة وعدم تنفيذ الواجبات العسكرية التي عهدت اليه بصورة جدية وتم إعدامه عام ١٥٥٣ م .

لم تكن هذه الحادثة نهاية لمحاولة العثمانيين في السيطرة على الخليج العربي ، الا أن جهودهم حتى تلك الفترة لم تتجاوز سيطرتهم على الساحل الممتد من البصرة ، إلى القطيف ، لذلك فقد صدرت أوامر الباب العالي إلى القائد (مراد بك ريس أن يذهب الى الخليج العربي لاعادة سفن الاسطول التركي الذي تركه بيري بك هناك) ولا توجد لدينا تفاصيل دقيقة عن الحملة التركية هذه ، وهي على الاغلب حدثت عام ١٥٥٢ م ، لكن المصادر التركية والبرتغالية تقول إن الحملة التركية تكونت من خمس عشرة سفينة ، وتقول المصادر البرتغالية إن (مراد بك) هذا هو القائد الذي خسر منطقة القطيف في إحدى معاركه ضد البرتغاليين لذلك فقد كان متشوقا جدا للقتال ضدهم ، فلما شعرت السلطات البرتغالية بحركة الاسطول الذي خرج من البصرة اصدرت الأوامر الى القائد (دوم دييكو دي نورونها) بالتصدي له ، فالتقى الاسطولان قرب السواحل الفارسية ونشبت معركة بينهما ، وخلال المعركة هبت عاصفة بحرية شتت شمل الاسطول البرتغالي وأوشكت إحدى سفنه أن تقع فريسة للقوات العثمانية ، لذلك فقد قرر القائدان العثماني والبرتغالي العودة إلى قواعدها .

وصلت أنباء اخفاق (مراد بك) بانزال هزيمة بالبرتغاليين والخروج بالاسطول التركي المحاصر في البصرة ، إلى مسامع الباب العالي لذلك فقد أصدر أوامره إلى القائد التركي (سيدى على ريس) والمعروف أيضا باسم (علي بك شلبي) القائد العام للقوات البحرية العثمانية في مصر أن يذهب إلى البصرة عن طريق البر ، وعليه أن يقوم هناك بقيادة أسطول بيري بك ، والخروج به في الخليج

العربي وإعادته إلى مصر .

ويبدو من سير المعارك التي حدثت فيما بعد أن أوامر الباب العالي (لسيدي علي ريس بك شلبي) كانت تنص على عدم التعرض للقواعد العسكرية البرتغالية في الخليج ، أو مهاجمة هرمز أو الاصطدام بالاسطول البرتغالي ، بل يكون واجبه انقاذ سفن الاسطول المحاصرة في البصرة .

وصل القائد الجديد إلى البصرة في شهر شباط من عام ١٥٥٣ ، وكان والي البصرة مصطفى باشا يعاني من مشاكل وثورات داخلية يقودها شيوخ آل المشعشع وآل عليان ، فساعده على استتباب الأمن ، ثم أجرى صيانة عامة على الاسطول التركي وأجرى التدريبات اللازمة ، وفي أوائل شهر تموز من عام ١٥٥٣ غادر بأسطوله البصرة وتمكن من تفادي الاصطدام بالسفن البرتغالية وخرج من فم الخليج العربي .(١٤)

الا أن السلطات البرتغالية شعرت به ، وكان أسطول هرمز آنذاك بقيادة (دوم فرناندو دي نورونها) موجودا في منطقة ظفار العمانية ، فكمن هناك للاسطول العثماني والتقى به يوم ١٥٥٣/٨/٢٥ بالقرب من مسقط ، وهناك حدثت معركة شديدة بين الطرفين ، فقد فيها الطرفان عددا كبيرا من سفنهما ، واضطر الإثنان فيما بعد إلى التوقف عن القتال بعد الخسائر الكبيرة فانسحب (دي نورونها) نحو مسقط أما سيدى علي شلبي فقد قرر التوجه بما لديه من سفن نحو اليمن ، الا أن رياحا شديدة هبت عليه ودفعت بسفنه نحو الساحل الفارسي في منطقة (سورات) حيث تصدت له هناك عدة سفن برتغالية حطمت البقية الباقية من أسطوله ، بحيث لم يبق لديه إلا سفينة واحدة على ظهرها خمسون مقاتلا هرب بهم إلى ساحل (الكجرات) الهندي وهناك طلب حماية الحاكم المسلم ، ثم غادر البلاد على ظهور الخيل ومر بمعظم بلاد الهند ثم فارس وبغداد ولم يصل إلى إسطنبول الا في عام ١٥٥٧ م .

وعلى كل حال فان الخليج ظل مفتوحا للبرتغاليين ، لأن العثمانيين حتى هذه الفترة لم تكن لديهم قوة بحرية كافية في البصرة لمقاتلتهم ، ففي بعض المصادر جاء أن حملة قادها (دوم الفيرو دي سلفيرا) حاولت عام ١٥٥٦ م أن تحتل البصرة ، لكن العواصف دفعتها بعيدا عن شط العرب .(١٥)

الا أن عام ١٥٥٩ م شهد تحركا عثمانيا عسكريا جديدا في الخليج ، إذ قام (بيلربي البصرة) مصطفى باشا باعداد حملة عسكرية ليهاجم بها القاعدة العسكرية البرتغالية في البحرين .

ويسود الغموض تفسير الدافع الرئيسي لهذه الحملة ، بين قائل إنها كانت رغبة شخصية من مصطفى باشا لتوسيع نفوذه إلى البحرين ، وبين قائل إنها كانت بأمر الباب العالي الذي لبى نداء حاكم البحرين لنجدته ، كما تختلط التعريفات في شخصية (مراد بك) الذي كان حاكما في البحرين هل هو ممثل لحكومة هرمز البرتغالية ، أم هو فارسي ، أم والٍ تركي..؟

إن المصادر البرتغالية تقول إنه فارسيٌ ويمثل حكومة هرمز في البحرين ، بينما تقول المصادر التركية إنه والٍ تركي على البحرين . وعلى كل حال فقدً تشكلت الحملة من أكثر من سبعين سفينة بين مقاتلة وناقلة جنود عليها (١٢٠٠) جندي ، وفي ١٣/ رمضان / ٩٦٦ هـ توقفت الحملة أمام قلعة البحرين وحاصرتها . وتقول المصادر البرتغالية إن (الريس مراد) والي البحرين الهرمزي أرسل نداء مستعجلا إلى (أنطونيو دي نورونها) حاكم هرمز ، الذي أمر بتجهيز حملة بقيادة أخيه (دوم جوادي نورونها) لمقابلة الاتراك ويقول البرتغاليون إن عدد سفن الحملة كانت عشرا ، أما العثمانيون فيقولون إثنين وعشرين وقد وصلت القوة البرتغالية إلى مشارف البحرين يوم ٢٦/ رمضان وهناك اشتبك الطرفان في الحرب ، حيث قام (محمد بك) الذي كتب وثيقة الحرب هذه ، وكان رئيسا لسنجق تابع لأيالة الاحساء ، بقتال من حاول النزول برا من البحر من البرتغاليين ، أما مصطفى باشا فقد كان يدير المعركة البحرية من المنامة .

وبعد سلسلة من المعارك التي شارك فيها (مراد بك) بثلاثمائة جندي ايراني لمساعدة البرتغاليين ، فان البرتغاليين أوشكوا على الانكسار ، وقد قتل في إحدى المعارك (دوم جوادي نورونها) نفسه ، وهو الأمر الذي لم يشعر به العثمانيون لانه غير موجود في تقاريرهم لذلك فقد قام حاكم هرمز بارسال القائد (بيروبيشوتو) ليحل محل القائد القتيل ، ثم لم يلبث أن تبعه بنفسه ، وبذلك فقد طوقت القوة العثمانية بين دفاعات البحرين الارضية والاسطول البرتغالي القادم من هرمز ، كما أن مصطفى باشا مات أو قتل أثناء المعارك فانهارت معنويات الجيش التركي ودبت المجاعة بين صفوفه لذلك فقد قرر الاتراك إجراء مفاوضات مع البرتغاليين للانسحاب الى البصرة ، وعليه فقد جرت المفاوضات التي اشترك فيها (محمد بك) و(سلطان علي بك) قائد سنجق القطيف وانتهت المفاوضات بأن أعاد الاتراك الاسرى البرتغاليين ومعهم غنائم الحرب التي كسبوها كما دفعوا مبلغ مائة الف (دوكات) أو (أقجه)

وانسحبوا الى البصرة .

بلغ عدد قتلى البرتغاليين حسب ادعائهم أكثر من سبعين قتيلا ، وعدد الاسرى أكثر أما الاتراك الذين عادوا الى البصرة فكانوا (٢٠٠) من أصل (١٢٠٠) ، وقد أستمرت تلك الحركات العسكرية ستة أشهر تقريبا .

وعلى كل حال فان ماحدث بعد ذلك من أمور بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج يسوده الغموض الشديد ، كما أن اخبار الفعاليات التركية في الخليج تعوزها المصادر التوثيقية المفصلة ، الا أنه وكما بدا واضحا فإن الارتجال وعدم وجود تكتيك عسكري وسياسي جيد كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية أمرها في الخليج العربي ، وعموما يمكن القول إنه منذ الاحتلال العثماني للبصرة عام ١٥٤٦ إلى ذلك التاريخ فان الخليج العربي انقسم بين النفوذ العثماني الذي امتد من البصرة إلى سواحل القطيف ونفوذ البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وعمان ، وكانت البحرين تشكل الحدود التي تفصل بين مناطق نفوذ البلدين وفي رواية أخرى إن البحرين أعلنت خضوعها للعثمانيين وأن السلطان العثماني أعاد تثبيت جلال الدين مراد خان على ولاية البحرين .

ويبدو أيضا أن كلا الطرفين أدرك استحالة تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر وأن نتائج التصادم تكون في غير صالح العثمانيين ، لذلك وانطلاقا من الفوائد الكثيرة في تشجيع التجارة بين الهند وتركيا عبر الخليج العربي ، فقد قام والى البصرة بمفاتحة حاكم هرمز البرتغالي على وضع أسس لصلح دائم وعلاقات تجارية بين البلدين وقام حاكم هرمز بارسال موفد منه هو (أنطونيو تاكسيرا) الذي قابل الباب العالي عارضا عليه مقترحات هرمز ، الا أن الباب العالي رفض الحديث مع (تاكسيرا) باعتباره ممثلا لهرمز فقط وطلب مقابلة شخصية تمثل البلاط الملكي البرتغالي .

وكان آخر صدام عسكري بين العثمانيين والاتراك قد جرى عام ١٥٨١ م ، أي بعد انهيار الامبراطورية البرتغالية النهائي وتدميرها على يد القوة العربية الجبارة يومذاك وهي الدولة السعدية في المغرب العربي .

ففي معركة (وادي المخازن) التي وقعت في الرابع من شهر آب عام ١٥٧٨ م ، أنزل السلطان المغربي مولاى عبدالمالك سلطان الدولة السعدية هزيمة كبرى بجيش برتغالي يبلغ تعداده خمسين الف مقاتل بقيادة الملك (سيباستيان) ملك البرتغال الذي عبر المضيق بجيشه لاحتلال المغرب ، مما أدى الى تمزق الجيش البرتغالي ومقتل ملكه (سيباستيان) وكانت

النتيجة أن قام ملك اسبانيا (الملك فيليب) باستغلال الفرصة فاحتل (لشبونه) العاصمة البرتغالية ، وبذلك سقطت دولة البرتغال وصارت دولة مستعمرة بعد أن كانت مستعمرة ، وحقق عرب المغرب أعظم انتصار عسكري في وقته بأن حطموا احدى الركيزتين الاستعماريتين اللتين كانتا يومذاك ، مثل روسيا وأمريكا في يومنا هذا .

أما ما حصل بعد ذلك بالنسبة لعلاقات العثمانيين بالبرتغاليين بصورة عامة والخليج العربي بصورة خاصة فان اهتمام العثمانيين كان منصبا على ساحة البحر المتوسط وساحة شرقي افريقيا ، وكان أمير البحر التركي (علي بك شلبي) على رأس قواته التي كانت تقاتل البرتغاليين أمام السواحل الافريقية ومدخل البحر الاحمر ، وفي عام ١٥٨٠ م قام (علي بك) هذا بحملة عسكرية خاطفة على مدينة مسقط العمانية وتمكن من احتلالها لفترة قصيرة ، إلا أنه غادرها وانسحب منها بدون تحقيق فائدة عسكرية أو سياسية من حملته هذه .

وكان آخر المطاف بالنسبة لقصة التواجد البرتغالي في الخليج العربي يوم قام شاه ايران عباس طهماسب بن اسماعيل الصفوي ، بمعاونة اسطول بريطاني في عام ١٦٢٢ م بانزال هزيمة بالبرتغاليين الموجودين في هرمز وسواحل فارس الجنوبية أجبرتهم على الفرار إلى عمان وبعض اجزاء الساحل العربي وبحلول عام ١٦٢٤ م ظهر على مسرح التاريخ الخليجي الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس دولة اليعاربة في عمان ، وقد تمكنت تلك الدولة من إنهاء قصة التواجد البرتغالي في عمان والخليج العربي وبعض سواحل أفريقيا بصورة نهائية فيما بعد .

الخلاصة :

لقد بدا واضحا أن اهتمام الاتراك العثمانيين بالخليج العربي لم يكن بالدرجة الكافية اي ليس بقدر اهتمامهم بمناطق العالم الاخرى التي كانوا فيها ، وهم لذلك لم يحاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى أكثر من مساحة الاحساء والبحرين ، بينما بقي البرتغاليون يهيمنون على مدخل الخليج العربي وهم يتمتعون بمعاهدة صلح وسلام مع الدولة الصفوية في إيران ، لذلك لا يمكن أن يقال إنه كان هناك مجهود اسلامي مشترك بين الفرس والاتراك والعرب لتجميع قوات وموارد الثغور الاسلامية البحرية وتنسيق جهودها في عمل عسكري فعال كما يبدو أن اهتمام الاتراك بولاية الاحساء والانتشار فيها لم يكن حسب خطة عسكرية أو سياسة تؤدي بهم بالتالي إلى الوصول الى مناطق

الخليج الاخرى وتخليصها من البرتغاليين لذلك فقد بدا وكأن جل اهتمامهم كان المحافظة على البصرة ، بل إنه وفي تاريخ لاحق ، أي عندما بدأ الانجليز يظهرون على مسرح الاحداث في الخليج فان مكاتبات قد جرت بين الاتراك والبرتغاليين لمنعهم من احتلال البحرين والوصول الى البصرة .

ولكن ، وكما قلنا سابقا فإن انعدام الرغبة العثمانية الجادة في السيطرة سيطرة كاملة على الخليج ، ومساعدة العرب في تحرير بلادهم كان واضحا ، رغم إن العثمانيين كانوا على رأسي الكماشة اللذين كانا يشكلان قواعد عسكرية مثالية للاطباق على البرتغاليين وهما قاعدتا عدن والبصرة ، الا أن روح الارتجال والتسرع وعدم وجود خطط سياسية وعسكرية مدروسة عند الاتراك كانت الميزة الظاهرة في علاقاتهم بالخليج العربي والدول العربية ما عدا العراق إلى تاريخ قريب من يومنا هذا .

كاظمة
لأرشفة التراث الديني

الهوامش

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي : كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ـ ص ٩١ .
(٢) AFONSO DE ALBUQUERQUE-OSONHO DA INDIA
(٣) عفيف الدين بامخرمه ـ قلادة النحر وكذلك عيسى بن لطف الله ـ مخطوطة روح الروح .
(٤) F.C. DANVERS - THE PORTUGUESE IN INDIA - VOL. ONE - P 117
(٥) DANVER المصدر نفسه ص ١٢٠ ، وكذلك كتاب تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين الفقيه الشيخ زين الدين ـ ص ٤٠ .
(٦) ص ٢٧٨ ـ المصدر نفسه ـ AFFONSO DE ALBUQUERQUE
(٧) إبن اياس الحنفي ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ص ٤٣٦ .
(٨) محمد فريد وجدي ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص ١٩٢ .
(٩) قطب الدين النهروالي ـ البرق اليماني في الفتح العثماني ـ ص ٨٠ ـ ومصادر يمانية اخرى أيضا .
(١٠) العراق في التاريخ الحديث ـ الفصل الأول ـ ص ٥٧٦ .
(١١) الدكتور صالح اوزبران ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ـ ص ٣٨ .
(١٢) اوزبران ـ المصدر نفسه وكذلك DANVER ـ المصدر نفسه .
(١٣) DANVER المصدر نفسه ص ٤٩٢ وكذلك اوزبران ـ المصدر نفسه ص ٤٢ .
(١٤) جعفر الخياط ـ تاريخ العراق في العصور المظلمة ـ ص ٣٥ .
(١٥) د . اوزبران ـ المصدر نفسه ص ٥١ .